المصـــــدر : الوطن السعودية
التـــاريخ : 14-10-2005 العـــدد : 1841
الصفحـات : 17 المسلسل : 102

المرأة... والمجتمع

كان لقاء خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز مؤخراً بنخبة من الإعلاميات والعاملات في الشأن الثقافي إشارة هامة إلى أهمية دور المرأة بوجه عام– والمثقفات والإعلاميات بوجه خاص– في إضاءة الطريق أمام المجتمع، وتكريس الوحدة والتلاحم الوطني بين جميع شرائح المجتمع السعودي.

من التطورات التي شهدها المجتمع أخيراً إتاحة الفرصة لسيدات الأعمال للترشح والترشيح في انتخابات الغرفة التجارية الصناعية بجدة، رغم أن الصوت الذكوري بدأ استخدام النبرة الحادة محاولاً منعها من حقها الطبيعي والقانوني، ليصل الأمر إلى التهديد بأساليب مختلفة. لكن هذا الأمر سيعبر وينتهي بإرادة المرأة نفسها التي لا بد لها أن تقرر مصيرها بهذا الخصوص. فالمرأة العربية أحياناً تخذل نفسها بنفسها في القضايا المصيرية التي تخصها؛ لأن النسق الثقافي يلغي فيها روح المبادرة فتحاول دائماً الاعتماد على الرجل في تقرير أمر تريده ويخصها. ليس هذا أمراً طارئاً بل هو تراكم ثقافي طويل في مجتمع يكون فيه الجنس الذكوري ذا سطوة كبيرة تسببت في تنميط صورة الأنثى فالصورة الشائعة هي أن الأنثى ذات عاهة مستديمة بينما صورة الرجل هي الأنقى من العيوب، لا لسبب سوى أن القوة البدنية هي المعيار!.

لا يمكن، بأي حال، فصل المرأة عن نسيج المجتمع، باعتبارها لبنة أساسية في تكوينه. ولكن في ثقافتنا العربية غالباً ما تعتبر المرأة وكأنها غير منتمية للمجتمع حقيقةً، حيث يتم فصل الشؤون التي تخصها عن بقية شؤون المجتمع. منطقياً ليست هناك مشكلة في أن يتناول الرجل شؤون المرأة، أو تتناول المرأة شؤون الرجل بسبب ارتباط كل منهما بالآخر وفق الطبيعة البشرية حيث إن كلاً منهما نصفُ الآخر. ولكن التراكمات الثقافية –التي جعلت العلاقة بين الطرفين مشوشة وضبابية– كوّنت رؤية الحجب والعزل انطلاقاً من مبدأ العاهة (العيب) والنقص والضعف.

في ثقافتنا العربية كل من يتحدث بشؤون المرأة كجزء من الهموم الاجتماعية ينظر إليه بعين التوجس وسوء الظن، باعتبار حديثه فكراً تغريبياً أخذ من الغرب انحلاله وتحطم أواصره الاجتماعية يريد إسقاطها على مجتمعنا المحافظ! إذ يعتبر الرجلُ الحديث في شؤون المرأة من اختصاص المرأة نفسها، فمن يتحدث بأمورها كأنما يسير في حقل ألغام، لكن في المقابل يتم توجيه خط سير المرأة من قبل هذا الرجل نفسه! الحقيقة تكمن في أن القيود الثقافية هي اللاعب الخطير في توجيه فكر الأفراد والجماعات. ففي ثقافتنا المحلية ما زال مجرد ذكر اسم المرأة إشكالية كبيرة من إشكالات التعاملات اليومية؛ يعود ذلك إلى اقتران المرأة –ككائن بشري– بـ(العيب) الذي هو وجه آخر للنقص والسلبية.

في عالم الرجال، يكتسي الخجل بعضهم حين يُطلب منه ذكر اسم زوجته أو ابنته في بعض الإدارات الحكومية، ولولا الضرورة لما أضاف بعض الرجال اسمها في بطاقة العائلة، فضلاً عن المواقف الحرجة التي ما زال يواجهها كثيرون بين بعضهم البعض فيعمدون إلى التورية بمسميات أخرى (الأهل – أم فلان – البيت)... إنها ثقافة الذكر!

تتكئ ثقافتنا العربية على مفاهيم واهية في التعامل مع المرأة. فكثير من الناس يحقّر من شأن المرأة ويضعف عقلها انطلاقاً من أحاديث رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم مثل: "ناقصات عقل ودين"، و"شاوروهن وخالفوهن". مثل هذه الأحاديث فُهمت على ظاهر لفظها لدى كثير من العامة، فأخذوا يرددونها في كل حين معتقدين أن (الدين)

> إن أنظمة العقوبات لدينا فضفاضة وغير محددة وذلك مما يتسبب في تمادي البعض وعدم اكتراثهم باقتحام حريات الآخرين وخصوصياتهم، ولا سيما أن أدوات الاقتحام قد تطورت بتطور وسائل التقنية الحديثة...

يدعم تخلّفهم ونظرتهم الدونية للمرأة، مما جعل المرأة تعاني من ممارسات الرجل العنف المادي والمعنوي عليها، حيث يتوهم كثير من الرجال أن ضرب الزوجات وقمعهن وإلغاء حقوقهن الإنسانية والدينية يدخل ضمن حقوقهم الزوجية الطبيعية!

قبل أيام تعرضت فتاتان لحادثة بشعة (وهي ما عرفت في الصحافة بحادثة نفق النهضة) من قبل بعض الشبان في مدينة الرياض، حيث قاموا بتصوير ممارستهم التحرش بهما؛ فانتشرت تفاصيل الحادثة المصورة على شبكة الإنترنت وأجهزة الهاتف المحمول (البلوتوث). احتقان مشاعر الشارع السعودي أثناء هذه الحادثة لم يكن بسبب

المصـــــدر : الوطن السعودية
التـــاريخ : 14-10-2005 العـــدد : 1841
الصفحـات : 17 المسلسل : 102

سعود البلوي*

الحادثة نفسها بقدر ما كان بسبب اكتشاف حقيقة الزيف والوهم المتعلق بطُهر المجتمع ونقائه عند مشاهدة بعض الشبان يمارسون التحرش بفتاتين في الشارع لا لقصد سوى الإساءة والقمع وإظهار الفحولة! فمثل هذه الممارسات ليست بجديدة على المجتمع، ولكن لسان حال مجتمعنا يقول: أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه!

بعد شيوع قصة نفق النهضة انطلقنا كعادتنا في ممارسة هوايتنا القديمة (التفسيرات الآنية) بحثاً عن أسباب عاطفية غير منطقية، وإهمال البحث عن الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء الخلل الحقيقي في المجتمع. حتى إن البعض استحضر (نظرية المؤامرة) واعتبر هذه الحادثة مفتعلة! والبعض الآخر - ومن بينهم شخصيات دينية واجتماعية مرموقة- قلّب وجه الحقيقة بلومه الفتاتين واعتبارهما السبب (المثير) في الجرم. وهذا ما يعيد إلى ذهني القصة التراثية المشهورة للخروف الذي اتجه إلى النبع ليشرب فوجد ذئباً يتهمه بتعكير صفو الماء؛ لا لشيء سوى أنه ينوي افتراسه!

هناك عدة أسباب تحكمت بخيوط الحادثة. أهمها الثقافة السائدة في المجتمع التي يُنظر من خلالها للمرأة التي تسير بلا محرم (والمحرم هنا هو بالضرورة رجل) نظرة شك وريبة تمس أخلاقها؛ فبسبب هذه الذهنية المليئة بالوهم لن تكون المرأة حرة في تصرفاتها كل الوقت، فقد يقتحم أحد المتهورين/المتوهمين حريتها كما حصل. على الرغم من أن هيئات الآخرين وتصرفاتهم ليست مبرراً لأي طرف لاقتحام حريات الآخرين ومصادرة حقوقهم. ثم إن أنظمة العقوبات لدينا فضفاضة وغير محددة (البعض يطالب بعقوبات مختلفة كردع الفاعلين بالتشهير، إلا أن هذا ليس الأسلوب الأمثل لنشر الإصلاح والتسامح بين الناس)؛ وذلك مما يتسبب في تمادي البعض وعدم اكتراثهم باقتحام حريات الآخرين وخصوصياتهم، ولا سيما أن أدوات الاقتحام قد تطورت بتطور وسائل التقنية الحديثة التي تستخدم في مجتمعنا بسلبية كبيرة. إن معظم الشباب السعودي في مختلف مراحله العمرية يتميز بالاحتقان والتهور، وهذا يعود إلى طبيعة تكوين مجتمعنا المنغلقة (التي يطلق عليها البعض المحافظة) التي ولّدت الفراغ وكبت الطاقات الطبيعية للشباب (ذكوراً وإناثاً) بتهميشهم وعدم الاهتمام بهم وإشعارهم أنهم يمثلون لبنة أساسية في تكوين المجتمع.

---

*كاتب سعودي
skab@alwatan.com.sa